معايير الانسجام النصي

في خطبة الرسول (ص) في الأنصار.

د/ ميلود منصوري

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة وهران 1– السانيا

اهتم علماء اللغة باتساق النص وانسجامه ، فنشأ علم النص أو نحو النص. بدأت إرهاصات هذا العلم على يد هاريس Harris في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وتطور في السبعينات على يد فان دايك van فعُدَّ المؤسس الأول لعلم النص أو نحو النص.وأصبح نحو النص حقيقة راسخة على يد الأمريكي روبرت دي بوجراند robert de beaugrande في الثمانينات.

يدرس نحو النص الروابط بين الجمل وتتابعاتها ومظاهر انسجامها. يدرس النصَ وسياقَه وظروفَه وفضاءاته ومعانيه المتعالقة القبلية والبعدية مراعيا ظروف المتلقي وثقافته وأشياء أخرى كثيرة تحيط بالنص1.

ويرى سعد مصلوح أن نحو النص « نمط من التحليل ذو وسائل بحثية مركبة، تمتد قدرتها التشخيصية إلى مستوى ما وراء الجملة ، بالإضافة إلى فحصها لعلاقة المكونات التركيبية داخل الجملة ، وتشمل علاقات ما وراء مستويات ذات طابع تدرجي يبدأ من علاقات ما بين الجمل ، ثم الفقرة ثم النص أو الخطاب بتمامه»2

ظهر نحو النص نتيجة تفاعل مجموعة من العلوم المتنوعة، بعضها لغوي مثل النحو والصرف والأصوات والبلاغة، وبعضها غير لغوي مثل الفلسفة والمنطق والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع.3

ويسعى إلى تحليل العلاقات بين العلامات ، وتحليل صلة العلامات بالمدلولات والواقع ، ويراعي التفاعل القائم بين النص وأجزائه وبين المبدع والمتلقي من خلال المقام الذي يشغل جزءا لا بأس به من اهتمامه.

لنحو النص سبعة معايير حددها روبرت دي بوجراند robert de beaugrande وفلفجانج دريسلر wolfgang dressler وهي:

1-السبك أو معيار الترابط الرصفي ، وهو نوعان:

أ-السبك النحوي، ويشمل الإحالة النصية التي تتم داخل النص، وتكون قبلية أو بعدية، و منها الضمائر التي هي من أهم العوامل المساعدة على تماسك النص وتحديد أفكاره، ومنها أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأدوات المقارنة،(التشبيه أو التشابه والتفاضل) والاستبدال الذي يتم بين كلمات وعبارات، ويعوض فيه عنصر في النص بعنصر آخر، ويكون اسميا أو فعليا أو قوليا، مثل استبدال كلمة(أخرى) بكلمة (فئة)في قوله تعالى« فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة» 4، والتقابل ، والربط باستخدام الحروف، والحذف ،مثل حذف فعل من جملة ثانية بعد ذكره في جملة أولى سابقة لها، والإسناد ، والتعريف والتنكير 5 فالتعريف يشير إلى معلومات سابقة، والتنكير يشير إلى معلومات لاحقة.

ب–السبك المعجمي، ويشمل التكرار والتضام الذي يضم الكلمات التي هي من حقل دلالي واحد ، والأسماء العامة ، والمطابقة، ورد العجز على الصدر وغير ذلك.

2– الحبك ونجده في المستوى الدلالي، إذ هو معيار الترابط المفهومي ، يربط العناصر المتتابعة في الذكر بعلاقات دلالية منسجمة، فتبدو كأنها بناء محكم متلائم الأجزاء. ويتمثل ذلك في وحدة موضوع الخطاب ، وترتيب عناصره وبنياته الكلية، وتحديد غرضه . وفي علاقة السببية والمسببية، وعلاقة العموم والخصوص، والإجمال والتفصيل، والجزء والكل،والتأكيد والبيان، والوصل والفصل، والاستفهام الحقيقي وجوابه، وغير ذلك.

3– القصد و يتضمن موقف منشئ النص، والخطة التي اتبعها للوصول إلى غايته،

4– القبول و يتضمن موقف مستقبل النص.

5–الإعلام وهو على درجات ثلاث ، يمثل لها تمام حسان بـ(الدرجة الدنيا مثل تطلع الشمس وقت النهار، والوسطى مثل المجازات والكنايات، والعليا مثل الإلغاز والتعميات والمرامي البعيدة) 6.

6–المقامية وتتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه. وهي بعد غير نصي ، أي من خارج النص.

7–التناص الذي يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بواسطة أو بغير واسطة. وقد تكون شرحا لنص أو تلخيصا له أو جوابا لسؤال أو غير ذلك.

وقد تجلت هذه المعايير في خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم في الأنصار رضي الله عنهم لما وجدوا عليه حينما لم يعطهم من الغنائم:

عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بذراريهم ونعمهم، ومع رسول الله (ص) عشرة آلاف ومعه الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما شيئا. قال: فالتفت عن يمينه فقال: « يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله نحن معك أبشر. ثم التفت عن يساره فقال: « يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله أبشر، نحن معك وهو على بغلة بيضاء فنزل وقال: « أنا عبد الله ورسوله» فانهزم المشركون ، وأصاب غنائم كثيرة فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار منها شيئا، فقالوا: إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا. فبلغه ذلك فجمعهم وقال:« يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها 7في أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة 8 فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل. قال: « ألا تجيبوني؟ » قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله؟ قال: « أما والله لو شئتم قلتم فصدقتم. أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك وعائلا فآسيناك وخائفا فأمناك، ووكلتكم إلى إسلامكم. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. أكتب لكم بالبحرين كتابا من بعدي تكون لكم خاصة دون الناس ؟ » قالوا: وما حاجتنا بعدك يا رسول الله ؟ قال: « أما لا فسترون بعدي أثرة 9 فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فان موعدكم الحوض وهو كما بين صنعاء وعمان، وآنيته أكثر من عدد النجوم. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »10 .

تجلى معيار المقامية في هذه الخطبة في المناسبة التي قيلت فيها ، وهي قول الأنصار رضي الله عنهم « إذا كانت الشدة فنحن ندعى ويعطى الغنائم غيرنا.»

وتجلى معيار القصد في جمع الأنصار وخطبته صلى الله عليه وسلم فيهم . فالقصد هو توضيح ما قام به من توزيع الغنائم على المهاجرين والطلقاء ، وترك الأنصار ، دون أن يعطيهم منها شيئا.

وظهر معيار الحبك في النداء، والاستفهام في قول النبي (ص) : « يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل. وقوله:« ألا تجيبوني؟ » قالوا: وماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

وظهر الحبك أيضا في القسم وجوابه ، والشرط وجوابه، والترابط الموجود بينهما، وذلك في قوله:« والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار.»

ونجد معيار التناص في قول الرسول (ص) للأنصار (ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله) وقول الله تعالى لنبيه (ص) « ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى» 11 . فكان قول الله تعالى مصدرا لقول الرسول (ص).

وظهر السبك النحوي في الضمائر، في ضم ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطبين (ما مقالة بلغتني عنكم) (ألم آميتكم ضلالا) (ألا تجيبوني؟) وضم ضمير المتكلمين إلى ضمير المخاطب (ماذا نجيبك يا رسول الله؟) مما يدل على الانسجام التام بين المتكلم والمخاطب أو بين الباث والمتلقي . واستمر ذكر هذه الضمائر الأربعة (ضمير المتكلم ، وضمير المخاطبين، وضمير المتكلمين، وضمير المخاطب) إلى آخر الخطبة مما أدى إلى اتساقها وانسجامها.

وظهر السبك النحوي أيضا في اسم التفضيل (الله ورسوله أمنّ وأفضل.) وهذا من التجاوب الحاصل بين المتكلم والمخاطب ، والمتابعة الدالة على فهم المخاطب لكلام المتكلم. .

وظهر التقابل الذي يبرز المعنى وضده ، فيتأكد الأول بالثاني في قوله:« ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » وقوله:« أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فأويناك وعائلا فآسيناك وخائفا فأمناك »

وظهر السبك المعجمي في تكرار اسم الأنصار في قوله:« يا معشر الأنصار»وقوله:« لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار» وقوله:« ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار.» وقوله:« اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » وقد دل هذا التكرار على مدى حب النبي (ص) للأنصار الذين ناصروه في ساعة العسرة .

وظهر معيار الإعلام جليا في الخطبة ، ظهر في عدل الرسول (ص) ، فقد ذكّر الأنصار بفضل الله عليهم ، وطلب منهم أن يذكّروه بما قاموا به من عمل لنصرة دين الله ونصرة رسوله ، وكان في ذلك منصفا لهم. وظهر صدقه في تبيين سبب منحه لعاعة من الدنيا لقوم أراد أن يؤلف بها قلوبهم ليدخلوا في الإسلام ، ووكل الأنصار إلى إسلامهم.

وكان مخلصا لهم محبا لهم ، فضل أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وأن يرجعوا هم برسول الله إلى رحالكم. وإذا اختار الناس الدنيا، فهم يختارون الآخرة ، وأكّد لهم أنه واحد منهم . وإذا لم يرضوا بذلك ، وفضلوا الدنيا فإنه سيكتب لهم

خيرات بلاد البحرين، تكون لهم خاصة دون الناس . فتحرك في قلوبهم الإيمان ، ففضلوا متاع الآخرة على متاع الدنيا ، فطلب منهم الصبر حتى يلقوا الله ورسوله يوم القيامة . وكان الرسول (ص) رحيما بهم فدعا لهم بالرحمة لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .

وقد وصلت الخطبة إلى الذروة ، وإلى الدرجة العليا من حيث المقبولية عند مستقبل النص ، إذ سمع الأنصار خطبة الرسول (ص) واستمعوا إليها وأنصتوا وفهموها فهما عميقا وتأثروا بها تأثرا عظيما .وقد قال فيهم أنس رضي الله عنه في نهاية الخطبة: فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا: رضينا برسول الله حظا وقسما، وانصرفوا.

فبكاؤهم يدل على تأثرهم ، ورضاهم يدل على اقتناعهم بما قسم الرسول لهم ، وأنهم فضلوا الآخرة على الدنيا ، وأن حب الرسول لهم باق ، ودعاؤه لهم ولأبنائهم ولأبناء أبنائهم باق، وأن ما أخذ الناس من حطام الدنيا زائل.

الهوامش

1– نحو النص ، اتجاه جديد في الدرس النحوي ، د/ أحمد عفيفي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة سنة **2001** م ص **37** .

2– د/ سعد مصلوح ، من نحو الجملة إلى نحو النص ، ص **407**.

3– تجديد الخطاب النقدي، أحمد عفيفي، مجلة نزوى سنة **2009**م.

4– آل عمران **13**

5– النص والخطاب والإجراء، تأليف روبرت دي بوجراند ، ترجمة تمام حسان، ص **307**.

6– النص والخطاب والإجراء ص **27**

7– جدة وجدتموها : غضب غضبتموه

8– فقراء.

9– يفضل غيركم عليكم في الغنائم.

10– خطب الرسول (ص) ، محمد خليل الخطيب ، دار الفضيلة، القاهرة ، مصر ، **1983** م وينظر كتاب وإنك لعلى خلق عظيم ، إعداد الشيخ صفي الرحمان المباركفوري ،ج**1**ص **270** شركة كندة للإعلام والنشر.وصحيح البخاري ، طبعة دار الرشيد للكتاب ، باب الوادي ، الجزائر .سنة **1423**هـ **–2003**م ص **787**.

11– سورة الضحى **7**، **8**.